حامد ومريم، فإن أبا سعد يذهب الى ساحة المخيم التي تحولت من مكان لتجميع قطيع المنفيين لتوزيع الاعاشة عليهم، أو تأنيبهم لفعل مخالف للأمن قد ارتكبه احدهم، الى ساحة للعرض العسكري، وللتدريب على فنون القتال: «لقد ذهب تلك الظهيرة الى حيث مكبر الصوت يعلو بحديث لم يكن يسمع مثله من قبل، ووقف هناك فوق الجدار يرقب، مثلما المصاب بالذهول، أطفال المخيم وبناته ورجاله يقفزون عبر النار ويزحفون تحت الاسلاك ويلوحون بأسلحتهم وقد شهد «سعيد» ابنه الاصغر يقدم أمام حشود الناس عرضاً عما يتعين على المقاتل ان يفعل حين يتعرض لطعنة حربة كي يتجنب الأذى... وحين نزل سعيد الى حلقة العرض أخذ الناس يصفقون... ودوّي تصفيق كالرعد في ساحة المخيم حين تجنب سعيد ضربة الحربة... وفجأة التفت رجل عجوز كان يجلس على حافة الجدار الى أبي سعيد وقال له: «لو هيك من الأول، ما كان صار لنا شيء»[١٣٥]. وفي اليوم التالي لهذا العرض العسكري يكون «الأفندي أول من بدأ المشيء خارج المخيم»[١٣٦]. كما تخبر أم سعد، والافندي هو الشرطي ـ رديف التسلط والقمع ـ وهو الامر الذي يشي، ضمناً، بوجود مركز للشرطة، لأن وجود الشرطي يستدعي وجود المركز، وهذا الاخير يتحول بغياب الشرطي عن دلالته القديمة ويصبح محض مكان، فالشرطي هو الذي يعطي لمركز الشرطة دلالته وليس العكس.

لقد أدت هذه التحولات الى مزيد من التحول في رؤية الناس للعالم، فحين ذهب سعد تحسن أبوه قليلاً، وحين رأى سعيداً يحمل السلاح في حلقة العرض، تحسن أكثر، وهكذا صار يرى المخيم «غير شكل»[١٣٧]، مثلما رآه الرجل العجوز، وحشد الناس الذين كانوا في ساحة المخيم، وأم سعد، والراوي، لأنهم جميعاً كانوا يرون الى الدالية التي برعمت.

أرادت أم سعد الا ترينا شيئاً أو مكاناً من المكونات الطوبوغرافية للمشهد الخارجي للمخيم بمعزل عن وجوده في بؤرة التحولات الدلالية، وعن دوره في الاحداث، وصلته بالشخصيات. وقد تعرفنا حتى الآن على المخيم في ليل ونهار ماطر، وعلى المقهى، والساحة، ومركز الشرطة، وعلى الازقة والممرات الضيقة، وعلى أسقف البيوت الواطئة... فماذا عن البيوت نفسها؟ عن مواصفاتها (الهندسية) وعن محتوياتها؟ كيف تنبثق وتتبدى في النص، وما هي حركتها الدلالية ومدلولاتها.

صدمة التعرف... أو فاعلية التضاد

تعرفنا الرواية على بيت وحيد من بيوت المخيم هو بيت «أم سعد»، ونبدأ دخولنا الى هذا البيت «النموذج» مع كلمات الراوي التي تجيء على هيئة جملة اعتراضية، بين قوسين، في اللوحة الخامسة «الذين هربوا والذين تقدموا». يقول الراوي متحدثاً عن أم سعد: «كان نهارها صحراء قاحلة من التعب المضني. منذ أبكر الصبح وهي تعتصر الملابس والمماسح، تنظف الشبابيك وتجلو الارض وتنفض السجاجيد (في بيوت الآخرين، طبعاً، فبيتها في المخيم غرفة مشطورة من النصف بحائط من التنك). كانت متعبة، وقد أخذت تعشّي ابنها الصغير لتضعه في فراشه وتنام، حين سمعت دوي الانفجار الاول»[١٣٨]. على هذا النحو لا يحضر بيت أم سعد الا من خلال علاقة تضاد مع بيوت الآخرين، فهذه بيوت، أما بيتها فهو محض غرفة مشطورة بحائط من التنك، تذكرنا بغرفة أبي قيس في «رجال في الشمس» المشطورة بأكياس الخيش.

وفي اللوحة الثامنة «أم سعد تحصل على حجاب جديد» ندخل الى البيت في سياق أحداث تقع داخله، وهي أحداث كانت قد وقعت قبل ان يغادر الافندي ـ الشرطي، المخيم، وقد روتها أم سعد للراوي الذي يعيد رواياتها، أو هو يكتبها، كما كانت طلبت منه أن يفعل، دائماً. اعتاد الافندي